لقاء النهضة بين مصر ولبنان: وعناصر انطلاقته وأثره في نهضة الثقافة واللغة

د.أنطوان جورج عبده

مدخل:

- كان الشرق يختزن منذ العصر العباسي تراث العرب والأمم المشرقية الروحي والفلسفي والثقافي... فلما أذنت الظروف التاريخية من جديد وهبّت رياح التغيير ، قدّرت لمصر ولبنان أن يكونا الأكثر استعدادا بين المجتمعات العربية المهيأة لهذه الجدلية الحضارية.

فقد عمّ الضعف والتنازع الأمبراطورية العثمانية، فطمعت القوى الأوروبية في السيطرة على الشرق وحمل نابوليون على مصر فوجدت نفسها وسط عالم من الحراك السياسي والعسكري والإقتصادي والثقافي الذي عانت منه كثيراً، وعرفت كذلك كيف تستفيد منه في بناء النهضة. وقد حمل نابوليون معه وسائل عديدة ذات شأن نهضوي في سائر الميادين.

وكان لظهور محمد علي وتأثّره الكبير بما رآه من أسباب النهضة الأوروبية دور مهم في استكمالها في مصر، التي وجدت نفسها بعد استقرار الصراع العثماني البريطاني في أجواء من الإنفتاح النسبي والتسامح والتشوّق إلى التحرّر، حاضنة لنهضة بازغة وموئلاً يقصده المثقفون الثائرون الذين اضطهدهم العثمانيون.

وكان للمثقفين اللبنانيين دور ومشاركة طيبة في هذا النهوض إذ أتاحت لهم استعداداتهم وظروفهم التاريخية القديمة والحديثة ،ومكانة لبنان في المتوسط وتفاعله مع ادواره الحضارية – سلبا وايجابا – كما كان لظهور الامير فخرالدين المعني، المتنوّر والمعجب بالإنجازات المدنية التي عرفتها في زمانه الإمارات المتوسطية (التي عاش فيها خمس سنوات -) دور نهضوي مهم كذلك،تابعه الكثيرون ممن أتوا بعده. وقد أتيح لابناء لبنان أن يكون لهم مدارس باكراً في القرن الثامن عشر (أو قبله) وجامعات وصحف في التاسع عشر أفاد منها الناس في تحقيق الوعي والرغبة في الإستقلال مما عرّض روادهم لاضطهاد العثمانيين فهاجروا واستقر الكثيرون منهم في مصر××.

وكان من نتائج هذا التلاقح الحضاري الشامل، الشرقي والغربي، أن عرف لبنان و مصر خصوصاً

- والعرب عموماً - نهوضاً مهماً في حقول: الحياة والعمران والحركات السياسية والإجتماعية وميادين الثقافة والتعليم والصحافة والطباعة والترجمة والمسرح والدراسات الفكرية والتجديد الأدبي والفنون الجميلة...

ولا بدّ من أن يتوجّه الدرس اذا نحو مظاهر النهوض المباشرة وعناصره وآلياته وأثره الكبير في درس العربية وإحياء دورها وتراثها وآدابها وتطور دورها في العالم المعاصر. لكن لا بدّ كذلك من ان نتوقف ههنا – في اطار ما هو ممكن ، وأشدّ تأثيرا – عند قضايا: التعليم والمدارس ، والصحافة والطباعة ، والمسرح وبعض ما يتّصل به من فنون مشهدية.

١- حركة التعليم والمدارس

١/أ- يعود تاريخ ظهور مدارس النهضة في لبنان إلى القرن السابع عشر. وقد تهيّأ له ذلك بفضل انفتاح الأمير فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠-١٦٣٥)على الغرب وما عاينه من نهضة عمرانية وحضارية وفنيّة في الإمارات الإيطالية التي مكث فيها خمس سنوات بين (١٦١٣-١٦١٨) ، فرغب في تثقيف شعبه ليكون له مثل هذه النهضة وعمل لها طوال حياته. وهكذا فقد تأسس في روما عام ١٥٨٤ بهمّته وبمساعدة البابا ، معهد عال غايته أن يعدّ معلمين ينهضون بالتوجيه الروحي والثقافي

والتعليمي معا ". وقد استكمل تشريع أهداف هذا المعهد في المجمع الذي انعقد في روما سنة ١٧٣٦ فنصّ على ما يلي: " تفتح في المدن والقرى والأديرة مدارس يتلقى فيها الأولاد العلوم، ونحثّ الرؤوساء على التعاون وتعيين المعلمين وتسجيل القادرين على تحصيل العلم وحمل أهلهم على التوجّه بهم إلى المدارس... وعلى معلمين الذين يختارون من مدرسة روما أن يعلموا الأولاد في المدارس ويثقفوا الأهلين في القرى المجاورة... "" ونحث معلمي المدارس أن يؤلفوا في العربية الكتب المدرسية مع مؤلفين معروفين بالفضل... وأن يعملوا على ترجمة الكتب ونشرها... وأن يعيّنوا نساخاً مجيدين تعميماً للفائدة"...١

وفي هذا النص أربع قيم نهضوية وحضارية مميّزة: القيمة الأولى هي قيمة فتح المدارس وتعيين المعلمين. والثانية هي أن يكون التعليم لجميع أبناء الطوائف وجميع الأولاد القادرين على تلقي العلم دون تعيين لمذاهبهم أو أوضاعهم الإجتماعية. والثالثة، ذات الرؤية المستقبلية هي " تثقيف الأهالي ". والقيمة الرابعة أن يضعوا الكتب المدرسية ويترجموا و "ان يؤلفوا في العربية " في دعوة مبكّرة- هي الأولى- الى تأليف الكتب المدرسية لخدمة التعليم ، وإلى إعادة إحياء العربية وتراثها. وقد خرّجت هذه المدرسة علماء كباراً في عصرهم اشتغلوا في المباحث الدينية والعلمية والفلسفية واللغات والترجمة و في تأسيس المعاهد العلمية والمكتبات والمطابع، ووضع الكتب المدرسية ونذكر منهم: جبرائيل الاهدني (ت١٦٤٨) الذي علّم في المدرسة الملكية في باريس ونقل بعض كتب التراث العربي إلى اللاتينية. والحاقلاني (ت١٦٦٤) الذي درّس في جامعة باريس وصار ترجمان البلاط الفرنسي. والأب بطرس مبارك (ت١٧٤٧) الذي عمل في إمارة توسكانا على بعث المخطوطات العربية وتصنيفها وطباعتها. ويوسف السمعاني الذي جمع المخطوطات العربية والشرقية في المكتبة الفاتيكانية ووضع لها تصنيفاً حديثاً شاملاً مع الفهارس والتلاخيص والتعليقات... وهذا عمل جبّار ضخم ذو فائدة مهمة للعربية وتراثها حتى اليوم. وقد فعل أحد طلابه مثل ذلك في مكتبة الاسكوريال الإسبانية الغنيّة بمخطوطات التراث العربي. و ساعدت هذا الجهود المبكّرة في قيام حركة نهضوية عينها على التراث مثلما هي على حركة التحضّر الجديدة التي تقوم في أوروبا (وقد صار هؤلاء أساتذة فيها) بعد سنوات من العلاقات الحضارية العربية الأوروبية في الأندلس، وقد شعروا بضرورة الإفادة من رياح الثقافة من خلال تجديد هذه العلاقات الإنسانية والثقافية. و شجّعت حركة الإنفتاح منذ فخر الدين ومع الأمير بشير وبعد احتلال محمد علي لسورية ولبنان وفود التجار والرحالة والإرساليات فيمّموا شطر مصر والمشرق. وكان من نتائج نشاطهم فتح معاهد تعليمية عديدة كانت ذات أثر مهم جداً في نهضة حركة التعليم. و واكبت هذه الحركة المدارس التي كانت موجودة، وكانت صغيرة إجمالاً – مثل مدارس الأديرة

والكتاتيب – فطوّرتها بإمكاناتها المادية والعلمية. وكانت الإرساليات متنوّعة: فرنسية (كالإرسالية اليسوعية خصوصاً) وإنكليزية وإيطالية وروسية وألمانية، وأميركية أخيراً. وقد أحسنوا الإنخراط في حياة الناس وفي ظروف معاشهم وعاداتهم وتقاليدهم، ونقلوا إليهم كذلك مع العلوم بعض العادات والمظاهر المادية والمعنوية الغربيّة، وأخذوا عنهم الكثير من العادات والأطعمة، والأزياء أحياناً. ومن المدارس الأولى التي صار لها دور تثقيفي مهم في لبنان والتي كان الفضل في ازدهارها للمعلّمين اللبنانيين وأهل الإرساليات على السواء: مدرسة عينطورة الشهيرة إلى اليوم (والتي تأسست عام ١٧٣٤م) ومدرسة عبيه (١٨٤٨). لكن الجمعيات اللبنانية المحلّية، المدنية والدينية، نشطت كذلك وطوّرت إمكاناتها فأسست معاهد تربوية، ما زالت مهمة منذ القرن التاسع عشر (أو قبله) إلى اليوم. وأشهرها مدرسة عين ورقة(١٧٨٩) و " المدرسة الوطنية " للمعلم بطرس البستاني (تأسست سنة ١٨٦٣) والتي أرادها كما يدل اسمها، أن تتجاوز التصنيفات الطائفية .وقد وفد إليها الطلاب من لبنان وأنحاء سوريا. ودرّس البستاني فيها مناهج تعليمية متطوّرة بالنسبة إلى عصره، مثل الفنون والموسيقى واللغات... كذلك المدارس الوطنية الأخرى كالمدرسة البطريركية(١٨٦٥) والثلاثة الأقمار (١٨٦٦)، وزهرة الإحسان للبنات (١٨٧٠) ومدرسة الحكمة (١٨٧٦ – وقد صار لها عشرات المدارس وجامعة مرموقة كذلك) وتأسست في أواخر القرن التاسع عشر المقاصد الخيرية الإسلامية (١٨٨٠) والكلية العثمانية، والكلية العاملية... وذلك بفضل همة بعض وجهاء بيروت والجمعيات الخيرية الإسلامية.

وكان بعض المدارس يؤمّن الإقامة والنوم لمن يشاء من الطلاب (الأجانب أو الذين يأتون من مناطق بعيدة). وصار الإهتمام بتطوير تعليم البنات أساسياً كذلك. ففتح المرسلون الأجانب والجمعيات الرهبانية اللبنانية والجمعيات الخيرية الأخرى مدارس جديدة ومهمة للبنات مثل مدرسة "زهرة الإحسان" التي سبق ذكرها ومدارس راهبات مار يوسف، وراهبات المحبّة... كما أسّست الإرساليات الأميركية التي حملت معها نفحة ثقافية مختلفة، مدارس للبنات مثل مدرسة مسز طومسن (١٨٣٤) والمدرسة الإفنجيلية الأميركية للبنات(١٨٦١)٢.

ولعلّ أرقى تطوّر ناله لبنان على صعيد التربية والتعليم في القرن التاسع عشر، هو تأسيس جامعتين عريقتين كان لهما شأن ثقافي بالغ الأهميّة في حياة البلاد وحياة الشرق وعلاقات النهضة الحضارية اللبنانية – المصرية والشرقية – الغربية. فقد أسّس المرسلون الأميركيون الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٨٦٦ ٣، واليسوعيّون جامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٤ ٤. وتطوّر فيهما عدد الإختصاصات حتى صار يغطي مجمل ما هو معروف منها. وأسّس المرسلون الأميركيون مدرسة للبنات في ثلاثينات القرن التاسع عشر تطوّرت إلى جامعة سمّيت سنة ١٩٢٥ كلية بيروت للبنات. ثم تحوّلت إلى جامعة كبيرة شاملة في القسم الثاني من القرن العشرين بإسم الجامعة اللبنانية الأميركية (وللشبان والشابات جميعاً). وتأسّست الجامعة الوطنية متأخّرة عام ١٩٥٣ ٥. وأمّ هذه الجامعات طلاب من جميع البلاد العربية وأوروبا وأفريقيا والقارة الأميركية (أحصى بعضها طلاباً من سبع وأربعين جنسية). وقد أحدثت في لبنان نهضة ثقافية ذات أهمية بالغة له ولجيرانه. وهذه المعاهد العلمية هي خير ما يمثّل قيم التلاقح الحضاري بمعناه الإنساني الراقي. وقد حمل الخرّيجون هذه القيم وهذا التراث حيثما حلّوا، وشيّدوا عمراناً مدنياً واقتصادياً وثقافياً يمثّل الثمار الراقية لحوار الحضارات، وما يمكن أن يقدّمه من مثال للسلام والتقدّم. ومن هذه البيئة إذاً هاجر اللبنانيون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى بلاد الدنيا ٦. يمّموا خصوصاً صوب مصر حيث وجدوا الملاذ والأمن والمجال الرحب لمساعيهم الإقتصادية والصحافية والثقافية... فساهموا فيها مساهمة طيّبة تعزّزت بها روح الشراكة الطريفة التي جمعت في الأهواء الحضارية بين الشعبين.

ولا بدّ من التوقّف عند ظروف هذا التعايش ومجالاته. ولأن الشيء بالشيء يذكر، فمن المناسب أن نبدأ بالحديث عن مدارس مصر وانبعاثها الثقافي إذاً، ثم نتابع وجوه اللقاء الأخرى، لنستكمل الكلام على ثمارها ونظهر أهميتها في نهضة البلدين ومشاركتهما الحضارية.

-١/ب- نعلم أولاً أن مصر بدأت عهدها التعليمي باكراً على أثر الحراك الثقافي الذي عرفته بعد حملة نابوليون(١٧٩٨-١٨٠١) والتطلعات النهضوية التي تميّز بها محمد علي خلال حكمه (بين ١٨٠٥- ١٨٤٩). وقد فتحت تنظيمات الحملة ونتائجها عيون الناس على هذا التباين بين ما تحمله من وجوه التطور وتخلّف المؤسسات التركية ووجوه الفساد التي عانى منها الناس معاناة كبيرة وكانت المدارس قبل ذلك تقتصر على الكتاتيب الصغيرة الملحقة بالمساجد غالباً – ما خلا الأزهر ومكانته الثقافية التاريخية – وأراد محمد علي أن يبني في مصر دولة مستقلة تستطيع أن تحلّ بكفاءة محل العثمانيين والفرنسيين. وكانت رياح التغيير والتمدن قد بدأت تعصف بالشرق من خلال الفتوحات والرحلات والنشاطات التجارية والبعثات المتنوعة وسائر عناصر التلاقح الحضاري بين الناس. وأنشأ على الصعيد التربوي وزارة ومجلساً للتعليم والمعارف. وأسّس أول مدرسة للهندسة سنة ١٨١٦ وأول مدرسة للطب سنة ١٨٢٧ وعقد الإتفاقات مع بعض البلدان الأوروبية – خصوصاً فرنسا – (كما فعل الأتراك قبله كذلك) و "دعا الإرساليات التهذيبية والعسكرية إلى تدريس أبنائها وأرسل بعثات الطلاب للدرس في أوروبا٧. وكان أكثرهم من طلاب الأزهر ، فدرسوا وتخصّصوا هناك في العلوم العسكرية، و"تدبير الأمور الملكية" (الإدارية بالمعنى الحديث) وفي علوم الطب والصيدلة والعلوم البيطرية والزراعية والإقتصاد والمال والحقوق والشؤون الدولية والسفارة والطبيعيات والمياه والعلوم العسكرية والبحرية وأنواع الهندسة كصناعة الجسور والبنى التحتية والميكانيك وسبك المعادن والطباعة والكيمياء وصناعة الورق والسكر والبارود، واللغات والترجمة...٨"

وهذه الإختصاصات تبرز في تنوّعها تأثر محمد علي بما حملته الحملة الفرنسية وطموحه في النهوض بمصر على سائر المستويات وإدراكه لما يمكن أن ينتج عن هذا اللقاء الفكري والإنساني بين شباب مصر والثقافة العالمية. وكانوا عند عودتهم يخدمون في حقول اختصاصاتهم ويترجمون فيها الكتب. وقد أسّس لهم محمد علي معهداً للّغات والترجمة بإدارة الطهطاوي لخدمة هذه الترجمات ونقل التراث العلمي إلى مصر٩. وكلّف محمد علي "كلوت بك" الطبيب الفرنسي بتأسيس وإدارة مدرسة للطب عام ١٨٢٦. فأنشأ المدرسة في أبي زعبل، ثم نقلها إلى القصر العيني – الذي ما زال معروفاً حتى اليوم – وكان مسؤولاً عن المستشفيات التي أقامها في القاهرة وخارجها. واستقدم لها الأطباء من فرنسا خصوصاً. لكنهم واجهوا باكراً مشكلة لغوية فاستعانوا بالمترجمين في البداية. ومع ذلك فقد نجحت المدرسة في تطوير نفسها (خصوصاً بعد البعثات إلى فرنسا) "وكان كلوت بك (١٧٩٣-١٨٦٨) مؤسس الإصلاحات الطبية في الديار المصرية سار إلى فرنسا بإثني عشر من طلابه سنة ١٨٣٢ فقدموا امتحاناتهم في باريس. وقد استبسل هو وطلابه في خدمة مرضى الطاعون عندما اجتاح مصر. وترك عدة مؤلفات طبيّة "١٠. وقد عني أطباء المدرسة وطلابها بنقل وترجمة وتلخيص الكتب الطبية والعلمية الضرورية لعملهم. (لكن عندما سيطر النفوذ البريطاني في ما بعد جعلوا مناهج التعليم وأدواته وكتبه وتدريسه بالإنكليزية)١١.

وقد درس في مدرسة الطب طلاب كثيرون من الأقطار العربية والترك واليونان... وغيرهم خصوصاً لأن انفتاح مصر سهّل مجيء جماعات عربية ومتوسطية وآسيوية للعيش فيها فساهموا في حياتها ونهضتها وتلوين حياتها بألوان البحر المتوسط. وقد عني محمد علي بإنشاء مدارس أخرى كمدرسة أركان الحرب سنة ١٨٢٥ ومدارس الزراعة والهندسة والطب البيطري والصيدلة. لكن هذه المؤسسات، إما خبت وإما لم تبق قائمة للأسف بعد وفاة محمد علي. "فقد صرف إبنه عباس (١٨٤٨ – ٥٠) المستشارين الأجانب وألغى المدارس الأجنبية وأكثر المؤسسات "١٢. وجاء سعيد بعد عباس فنهج نهجه، حتى كان عهد اسماعيل (١٨٦٣-٧٩) فأعاد الإنفتاح على الغرب وأعاد إحياء المؤسسات التعليمية وكان أول من أنشأ مدرسة للبنات في مصر هي المدرسة السيوفية. وفتح كلية للحقوق ومدارس مهنية أخرى متنوّعة وعزّز من إنشاء المدارس الإبتدائية والثانوية١٣ كما أنشأ مدرسة رائدة للعميان والصم والبكم. أما الجامعة المصرية فوضعت أسسها عام ١٩٠٨ وكانت أهلية حتى ١٩٢٥ حين تولّتها الحكومة وألحقت بها جميع المعاهد العليا.

وأسّس اسماعيل كلية أميركية في أسيوط عام ١٨٦٥. وقد بدأت الإرسالية الأميركية عملها في مصر سنة ١٨٥٤. وأسست في القاهرة كلية البنات الأميركية، التي بدأت مدرسة إبتدائية ثم تطورت. وجدير بالذكر أن الجاليات الأجنبية قد أفادت من أجواء الإنفتاح والإستقرار ففتحت مدارس لأبنائها كانت تستقبل كذلك أبناء العائلات المصرية (المتمكّنة غالباً). وكان الفرنسيون قد فتحوا مدرستين. وقد استمرّ أثرهم التربوي ومدارسهم ولغتهم فصارت الفرنسية تتمتع بمركز مميّز في المنهاج المصري وصار عدد طلاب المدارس الفرنسية يفوق أعداد الطلاب في مدارس الجاليات الأخرى جميعاً١٤.

أما الأزهر فقد اقتضت مكانته أن نفرد له مكاناً خاصاً لأهمية دوره في تاريخ مصر الثقافي. وهو مسجد وجامعة بناه جوهر الصقلي الرومي سنة ٩٧٢م أيام الفاطميين١٥. وعندما استتبّ الأمر للعزيز في ما بعد دعمه وجعله داراً للعلوم والدراسات العليا. ولما صار الشأن للمماليك عزّز الظاهر بيبرس (في القرن السابع الهجري) مكانته وشجّع على الدرس فيه. وأوقف عليه أكثر الأمراء بعد العزيز أوقافاً وأملاكاً أمّنت له دخولاً كثيرة. وقد تعزّز دور الأزهر ومكانته في النهضة بما يمثّله ويقدّمه من خدمة للدين والثقافة وما يخرّجه من طلاب. وقد ذكرنا أن أكثر الطلاب الذين أرسلهم محمد علي إلى أوروبا للدراسة والتخصّص في العلوم الحديثة كانوا من طلابه. وقد درّس فيه كذلك بعض العظماء (ابتداءً بإبن خلدون) والجبرتي (١٧٥٤ – ١٨٢٢) الذي عيّنه نابوليون عضواً في مجلس الديوان وهو واضع المرجع التاريخي المهمّ عن تلك الفترة: "عجائب الآثار... " ويمكن أن نذكر كذلك الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) الذي دعا إلى اليقظة الدينية والتمرّد على الرجعيّة واحترام العقل والعلم والإنفتاح. وحرّر مع جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) جريدة عربية في باريس. والطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) الذي أرسله محمد علي مع طلاب

البعثات إلى فرنسا بصفته موجها و مسؤولاً وقد أشرف على "مدرسة الألسن " وعلى مؤسسات ثقافية أخرى منها تحرير "الوقائع المصرية" أول صحيفة أنشأها محمد علي. وقد نهض الكثيرون من أساتذته وخريّجيه بإدارة المؤسسات الدينية والثقافية في مصر منذ أيام نابوليون وطوال عهد النهضة. وظل هذا الصرح العريق يتطوّر وينفض عنه غبار الأيام طوال تاريخه ليظل فاعلاً في تاريخ مصر والمسلمين١٦.

٢- الصحافة والطباعة

٢/أ- أسّست الحملة الفرنسية جريدتين فرنسيتين أصدرتهما اللجنة العلمية التي عيّنها نابوليون. والأولى هي: Courrier d'Egypte (كورييه ديجيبت: بريد مصر) والثانية هي: Decade Egyptienne (ديكاد إيجيبسيان: العشارى المصرية). وكانت الأولى تصدر مرة كل خمسة أيام والثانية كانت بالأحرى شبه مجلة تجمع بين شؤون التشريع والإقتصاد والعلوم، وهي موجهة خصوصا إلى تعريف الفرنسيّين والأوروبيين بشؤون مصر وتصدر ثلاث مرات في الشهر. ثم أصدروا نشرة صحافية سمّيت "التنبيه" سنة ١٨٠٠ عهد بتحريرها إلى أمين المحفوظات بالديوان الشيخ اسماعيل الخشّاب للعناية بأخبار الحملة ومقررات ديوان القضايا والأحكام... وأرادوا توزيعها كذلك خارج الإقليم المصري، لكنها لم تعرف كما يبدو، انطلاقة تذكر١٧.

وبعد انتهاء الحملة وانسحاب نابوليون انتظرت الصحافة حركة محمد علي الذي أصدر "الوقائع المصرية" سنة ١٨٢٨ بالتركية، ثم بالعربية. وكانت بالواقع شبه حكومية، وكلّف رفاعة الطهطاوي بإدارتها وتحريرها، وكانت لغتها ركيكة أول الأمر، ثم ترقّت بمشاركة حسن العطار والإمام محمد عبده وأحمد فارس الشدياق(١٨٠٤-١٨٨٨). وكان لها أثر وفضل. وظلت الجريدة الوحيدة حتى أيام الخديوي اسماعيل (١٨٣٠- ١٨٩٥) الذي أنشأ جريدتين حكوميتين: الأولى طبية هي " يعسوب الطب " والثانية هي " الجريدة العسكرية ". أما أول جريدة غير حكومية فهي جريدة " السلطنة " التي أنشأها اسكندر شلهوب سنة ١٨٥٧ وكانت ذات ميول عثمانية. ولم تبق طويلاً. ولم تنشأ جريدة شعبية أخرى حتى سنة ١٨٦٦ عندما أصدر عبدالله أبو السعود " وادي النيل ". ثم أصدر المويلحي وعثمان(١٨٤٦-١٩٠٤) جلال " نزهة الأفكار " سنة ١٨٦٩، فلم ترض عنها الحكومة طويلاً. يقول ابراهيم عبده: "لم تكن حالة مصر السياسية تسمح عندها بأكثر من هذه الصحف "... حتى سنة ١٨٧٦، بعد اشتعال الحرب الروسية العثمانية التي أحدثت في مصر والمنطقة هزة قوية " فكانت من أهم الأحداث التي فتحت ثغرة في طبيعة الحاكم الشرقي وفرضت عليه محاكاة الغرب في تكريم الصحافة وإطلاق قيودها... وقد نشأت عدة صحف، القليل النادر منها وقف إلى جانب السلطان، والكثير كان حرباً عواناً عليهم. وهلّل اسماعيل لهذه الحركة (التي طالته فيما بعد) وهي تقارن بين الدول الغربية الحرّة وبين الدولة العثمانية المريضة وما يدور في فلكها من دويلات١٨".

وقد تأسّست فيما بعد صحف مصرية أخرى ومنها خصوصاً: المؤيد واللواء لمصطفى باشا كامل، مؤسس الحزب الوطني. ولعل أطرف هذه الإصدارات في زمانها مجلة " روضة المدارس " التي أطلقها " ديوان المدارس المصري "بهمّة الطهطاوي. وكان الغرض من ذلك " النهوض بالعربية وإحياء آدابها ونشر المعارف الحديثة ". وكانت هذه المجلة توزّع مجاناً على طلبة المدارس فاتحة للنابغين منهم ميدان الكتابة...

- ولعل أبلغ ما يمثّل هذا التكامل الحضاري بين مصر ولبنان هو هذه النهضة الصحافية المشتركة التي شهدتها مصر بمشاركة مثقفين لبنانيين هاجروا إليها، ومثقفين مصريين نهلوا من الثقافتين العربية والغربية وأفادوا من انفتاح مصر واستقبالها لشعوب وثقافات المتوسط.

٢/ب - وكان أكثر هؤلاء الرواد الوافدين من لبنان قد أسّسوا فيه صحفاً وبيوتات للصحافة والطباعة والنشر، خاصة لا حكومية، منذ أواسط القرن التاسع عشر. فظهرت " حديقة الأخبار " لخليل الخوري سنة ١٨٥٨، وكانت تدعو إلى التعلّم والتحرّر في مجالات الحياة العامة. ثم أسّس المعلم بطرس البستاني (١٨١٣-١٨٣٨) العلاّمة والوطني الكبير ثلاث صحف بين ١٨٦٠ و١٨٧٠ هي الجنة والجنينة والجنان التي كان شعارها " حب الوطن من الإيمان" وهي تعالج الشؤون السياسية والأدبية وتدعو

إلى النهضة والإخاء بين المواطنين والطوائف. وبعضها كان يعالج شؤوناً علمية كذلك. وأسّس خليل سركيس " لسان الحال " عام ١٨٧٧، وعبد القادر قبّاني " ثمرات الفنون ".

وأصدرت الإرساليات نشرات أيضاً مثل " النشرة " للمرسلين الأميركيين (١٨٧٠) والبشير للمرسلين اليسوعيين، الذين أطلقوا بعدها " المشرق " (١٨٩٨) وهي مجلة أبحاث عريقة ما زالت تصدر إلى اليوم.

لكن الظروف دفعت هؤلاء اللبنانيين الى الهجرة ، طوعا وقسرا،فقد كسبوا معارف لا بأس بها من خلال نهضة المدارس والجامعات ، لكن تعسّف الدولة العثمانية وملاحقاتها – التي انتهت بتعليق أحرارهم وكتّابهم على المشانق- أدّت بهم الى الهجرة الى مصر وفرنسا والبلدان الأميركية حيث قدّموا كل ما يستطيعون من أجل خدمة بلادهم والبلاد التي حلّوا فيها، ومن أجل نهضة اللغة العربية وترقيتها. لذا قال فيهم شاعر النيل حافظ ابراهيم:

ما عابهم أنهم في الأرض قد نثروا
فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
سعوا إلى الكسب محموداً وما فتئت
أم اللغات بذاك السعي تكتسب

وقد يمّم هؤلاء شطر أرض الكنانة إذاً وعملوا في الصحافة والتجارة والسياسة. وأنشأوا دوراً للنشر ومطابع وصحفاً ومجلات. وأهم هؤلاء: سليم وبشاره تقلا اللذان أسّسا " الأهرام " سنة ١٨٧٥، وهي أكبر دور الصحافة في العالم العربي اليوم. ويعقوب صروف وفارس نمر صاحبا " المقتطف " التي تأسست في بيروت سنة ١٨٧٦ وهاجرت مع أصحابها إلى مصر بعد تسع سنوات. وميزتها الكبرى أنها كانت في زمنها متخصّصة في الشؤون العلمية وتبسيطها للناس وكان لها فضل كبير في هذا المضمار. وقد اشتهرت وازدهرت حتى صارت تصدر شهرياً في ١٠٤ صفحات وبقيت حتى سنة ١٩٥٢. وقد أصدر صاحباها " المقطم " أيضاً سنة ١٨٨٨. وأسّس جرجي زيدان(١٨٦١-١٩١٤) دار ومجلة " الهلال " سنة ١٨٧٩، وما زالت تخدم صحافة مصر إلى اليوم وهناك غير هذه أيضاً مثل " مرآة الشرق " ١٨٧٩، و " المحروسة " لسليم النقاش...

وكان للمثقفات من النساء اللبنانيات مساهمة تذكر كذلك، فقد أسّست " روز اليوسف "(ت.١٩٥٧) داراً وصحيفة ما زالت تعرف باسمها حتى اليوم، وأسّست لبيبة الهاشم فتاة الشرق سنة ١٩٠٦...

وكانت هذه الصحف والمطبوعات تشابه في تكوينها ومواضيعها ما تنتجه الصحف بمعناها المعروف من أخبار وتعليقات سياسية وإجتماعية واقتصادية ونسائية وتربوية وأدبية وعلمية وفنّية... وتعتمد الإشتراكات والإعلانات التجارية. وفيها المناظرات السياسية والأدبية، وذلك خير ما تقدّمه للحرية والصحافة معاً١٩. وقد تطوّرت بفعل هؤلاء وهمة المتنوّرين لغة الإنشاء والكتابة. وأصدر بعضهم كتباً ترشد الكتّاب وتسدّد الخطى إلى الفصحى الراقية مثل ابراهيم اليازجي(١٨٤٧-١٩٠٦) في كتابه " لغة الجرائد ". وكان لكبار الكتاب في مصر ولبنان فضل كبير في رفع مستوى العربية الأدبي والفكري والثقافي.

-٣- وقد أفادت النهضة الصحافية بشكل مهم من نهضة صناعة الطباعة٢٠

وكان ازدهارها هو أيضاً ثمرة التفاعل بين هذه الطاقات الحضارية الشرقية والغربية والمصرية-اللبنانية. وكان اكتشاف الطباعة الحديثة في القرون الوسطى نعمة لنهضة الثقافة والعلوم والمدنية وتعميم المعرفة بين البشر وفي كل بلد. ومن يقرأ أخبار إحراق المكتبات على أيدي الطغاة يدرك أهمية وجودها القصوى في حفظ التراث الإنساني ونشره بين الشعوب. فالحروب والصراعات تباعد بين البشر، لكن الأدب الراقي والفكر المبدع والفنون الجميلة تظل تقارب بينهم وتغري بالمودة الإنسانية.

-٣/أ- ويبدو تاريخياً أن أول كتاب طبع بالعربية هو كتاب (السواعية) وذلك في فانو بإيطاليا عام ١٥١٤.كما طبع بالعربية كتاب " الأجرومية " في اللغة عام ١٥٩٢ – ثم ترجم إلى اللاتينية. وقد حمل نابوليون معه إلى مصر مطبعة " سمّيت المطبعة الأهلية، وكانت لخدمة منشورات الحملة خصوصاً لكن التعطيل حلّ بها مثلما حلّ بعناصر الحملة الأخرى بعد رحيله، حتى جدّد محمد علي عملية النهوض وقد أسّس لذلك مطبعة بولاق (سنة ١٨٢١ على الأغلب، وعلى اسم الحي الذي تقوم فيه في القاهرة على ضفاف النيل)٢١، واستجلب لها عمالاً وخبراء (منهم نقولا مسابكي البيروتي). واستحضر أولاً الحبر والورق من إيطاليا ثم صنعهما في مصر (أسّس حسين باشا

أول معمل للورق)٢٢. وظلّت تتطوّر لتتجاوز مشاكل الإبتداء، كسوء نوعية الورق وشيوع الأخطاء في الطباعة والتبويب...٢٣ حتى صارت من أهم مطابع العالم العربي. وخدمت مصر والعرب خدمات جلّى في كل ما يعود إلى صناعة النشر والترجمة.

وقد ظهرت في مصر بعد أربعين عاماً تقريباً أول مطبعة أهلية هي " المطبعة الأهلية القبطية " نشرت محفوظات وكتباً دينية ولكنها لم تستمر طويلاً٢٤. ويبدو أن ازدهار الطباعة قد أصيب بنوع من التردّد والريبة في البداية، خصوصاً طباعة القرآن الكريم والكتب الدينية، حتى أفتى شيخ الإسلام في اسطمبول سنة ١٧١٢ بجواز الطباعة وإنشاء المطابع. ومع ذلك بقي التردد بعدها أحياناً٢٥.

وأسّس محمد عارف باشا في شركة مساهمة (وهو أحد أعضاء مجلس الأحكام) مطبعة المعارف المصرية عام ١٨٦٨. كما أسّس أحد طلاب الطهطاوي – أبو السعود أفندي – مطبعة وادي النيل عام ١٨٩٦. وكانت تطبع خصوصاً مجلة روضة المدارس التي سبق ذكرها.

– وكانت حركة الطباعة والتأليف أصيبت بنكسة عندما ضغط السلطان عبد الحميد على الحكومة المصرية لتصدر قانوناً للمطبوعات سنة ١٨٨١ ضيّق كثيراً على أهل القلم والفكر. لكن رياح التمرّد والتغيير كانت قد بدأت تعصف ولم تدم تلك الحركة طويلا.

-٣/ب- أما في لبنان فقد دخلت المطبعة الأولى عام ١٦١٠ وهي مطبعة دير قزحيا فطبعت كتباً دينية غالباً. وأول مطبعة عزّزت الطباعة العربية في لبنان هي مطبعة أسّسها عبدالله الزاخر في الشوير في جبل لبنان – عام ١٧٣٤. ومن المطابع الأخرى٢٦ التي تأسست في بيروت وقدّمت خدمات جلّى للصحافة وحاجات التعليم والثقافة: مطبعة القديس جاورجيوس عام ١٧٥٣ (وجدّدت عام ١٨٤٨) والمطبعة الأدبية لخليل سركيس وكانت تطبع جريدة لسان الحال واشتهرت بجودة مطبوعاتها وحروفها (الإسلامبولي والرقعي والفارسي). وأسّس خليل الخوري صاحب أول جريدة أهلية (حديقة الأخبار) مطبعة سنة ١٨٥٧ إستورد تجهيزاتها الحديثة في حينه من فرنسا وبريطانيا. كما أسّس المعلّم بطرس البستاني سنة ١٨٧٦ مطبعة المعارف التي طبع عليها صحفه الثلاث وبعض نفائس الآداب التي وضعها هذا المربّي والمفكّر الكبير مثل " محيط المحيط " وهو أول قاموس حديث، " ودائرة المعارف "، وهي أول انسيكلوبديا عربية، (وقد استكملت بعده). بالإضافة إلى العديد من الكتب المدرسية لفائدة طلاب مدرسته " المدرسة الوطنية " وسواها. وأسّس الدكتور ابراهيم نجار مطبعة – وهو طبيب لبناني درس في القصر العيني في مصر– وقد أخرجت بعض الكتب الطبيّة كذلك. وحمل المرسلون الأجانب معهم وأسّسوا في بيروت مطابع أخرى٢٧. فالإرسالية الأميركية حملت معها مطبعة من مالطا إلى بيروت سنة ١٨٣٤ كان لها فضل خصوصاً في طباعة الكتب المدرسية والجامعية ، وطباعة ترجمات للكتب الدينية. وعمل المشرفون عليها مثل "فانديك" "وسميت"(من مؤسّسي الجامعة الأمركية في بيروت ، من أجل تطويرها وصبّوا لها حروفاً حديثة في لايبزيك – ساكسونيا. وصنعوا الحركات للحروف، وصارت قادرة على طبع كتب في العلوم والهندسة والجغرافيا والطب و علوم العربية وآدابها. وكانت هذه من ثمار التقدم الذي حملته الجامعة الى بيروت. ويذكر أن كتاب الدكتور بوست عن نباتات لبنان وفلسطين هو أفضل ما أنتجته فنياً بمقالاته وصوره في حينها٢٨.

واستكمالاً للتنافس الحضاري الحسن أنشأ الآباء اليسوعيون " المطبعة الكاثوليكية " سنة ١٨٤٤. و"نهض لها الأب مونو فجهّزها بالمخترعات الحديثة والأدوات الضرورية، وبعث طلاباً لدرس فن الطباعة الراقي في أوروبا فأتقنوا الحفر وسبك الحروف واصطناع أمهاتها، ونشطوا لإصلاح بعض المطابع البيروتية كذلك وأغنوها بأشكال جديدة من الحروف العربية والافرنجية٢٩ ". وهي لم تزل من أنفس المطابع العربية والمشرقية إلى اليوم وكان لها فضل كبير في مجال النشر الصحافي والثقافي والأدبي ونشرالكتب المدرسية والجامعية بشكل حديث، " مزيّنة بأحسن الفهارس والملاحق والشروح٣٠ ".

-٤- المسرح

المسرح من الفنون الجميلة التي كان

انطلاقها وتطورها ونجاحها شواهد أخرى على ثمار التلاقح الحضاري بين الشرق والغرب ومصر ولبنان.

-٤/أ - وأوّل روّاده كما يبدو هو فتى من بيروت كان اسمه مارون النقّاش (١٨١٧ – ١٨٥٥) كان والده يعمل في التجارة فقام هو برحلات إلى إيطاليا وشاهد بعض المسرحيات وأعجب بها فأسّس فرقة مع بعض الشبّان وقدّم أول مسرحية، وهي " البخيل "،٣١ سنة ١٨٤٨ في منزله الفسيح في بيروت٣٢ ودعا إليها وجوه المدينة وقدّم لها بخطبة حدّد فيها هدفه: " مبرزاً لهم مرسحاً أدبياً وذهباً إفرنجياً مسبوكاً عربياً... لأن بهذه المراسح تتكشف عيوب البشر فيعتبر النبيه ويكون منها على حذر، ويكتسب التمرّن والتهذيب٣٣".

وهذه بكلام بسيط هي ابرز الأهداف الكلاسيكية للمسرح كما قبسها الغرب عن أرسطو.

وقدّم في السنة التالية "أبو الحسن المغفّل وهارون الرشيد" "ودعا إليها الوالي ورجال الحكومة والقناصل والأعيان "٣٤. وتوالت مسرحياته وكان آخرها سنة ١٨٥٣ لأنه مات باكراً. وقد شهد أهل عصره أنه كان موهوباً، وان مسرحياته " برهنت على أن النفس العربية يمكن إيقاظها وتحريكها بسهولة٣٥ "وكان يؤلف مسرحياته ويلحّنها ويدخل فيها الكثير من الحركة والأغاني. وقد دفعه إلى هذا الفن كما يقول إبن أخيه سليم النقّاش " غيرته الوطنية وما رآه فيه من فائدة لبلاده... ولم يكن يعرفه غيره من مواطنيه٣٦ ".

وتابع سليم بعده هذا الإهتمام وحمل فرقته من بيروت إلى الإسكندرية سنة ١٨٧٦، فكانت أول فرقة عربية من نوعها تدخل مصر، التي عرفت بعض الفرق الأوروبية. لكن أحد الشبان الذين عرفوا التمثيل في الغرب ومثّل مع بعض الفرق لأنه كان يحسن الفرنسية والإيطالية، أسّس فرقة ومسرحاً سنة ١٨٧٠، وهو يعقوب صنّوع المشهور " بأبي نظّارة "، وكان ناجحاً يحسن مخاطبة الجمهور. وقد قدّم مسرحيات عديدة مترجمة أو من تأليفه تقوم على نقد الحياة الأخلاقية والإجتماعية. لكنه عرّض بفساد الحكومة في إحدى مسرحياته، كما يبدو، فأغلقوا مسرحه. وانتظر النشاط المسرحي سليم النقاش وفرقته. وقد تعاون أولاً مع أديب اسحق الكاتب المعروف، لكنهما لم يوفقا كثيراً فتركت الفرقة لأحد أعضائها، يوسف خيّاط الذي انتقل بها إلى القاهرة. وظلّت تقدّم أعمالها هناك حتى ١٩١٥. وقامت في تلك الأثناء فرق أخرى كفرقة سليمان قرداحي (١٨٨٢ – ١٩٠٩) وفرقة المسرحي السوري أبو خليل قبّاني (١٨٨٤ – ١٩٠٠) وقد انفصل عنها في ما بعد ممثّل يدعى اسكندر فرح وأسّس مسرحاً وفرقة لم يستمرا طويلاً فأجّر مسرحه للشيخ سلامه حجازي الموسيقي والمطرب المشهور في زمانه، ثم أجّره لعبدالله عكاشه وفرقته التي كانت بإدارة الشاعر البيروتي الياس فيّاض.

-٤/ب - ويحسب الدارسون أن نهضة المسرح العربي قد مرّت في طورين متكاملين: الأول لمارون النقاش وينتهي سنة ١٩١٢ ويتلوه الثاني ورائده شاب لبناني آخر اسمه جورج أبيض. والفرق بينهما أن أهل الطور الأوّل لم يدرسوا فن المسرح والتمثيل واعتمدوا على جهودهم الحسنة وعلى الموسيقى والغناء... لكن جورج أبيض أدخله في دور احترافي فنّي جديد فقد جاء الإسكندرية يافعاً (ولد في بيروت سنة ١٨٨٠) وعمل فيها وزاول التمثيل كهواية مع بعض الفرق الأجنبية، وقد أتاحت له موهبته أن ترسله الحكومة سنة ١٩٠٤ إلى باريس ليدرس هذا الفن على أصوله فبقي فيها سبع سنوات ثم أسّس سنة ١٩١٢ فرقة عربية تقدّم العمل المسرحي والتمثيلي بشكل عصري فلقي نجاحاً استمرّ طويلاً " وأصبح بحق رائد التمثيل العربي الحديث "٣٧.

وظهرت فرق أخرى في مصر والبلاد العربية بعد الحرب الأولى واندحار تركية. وعرف المسرح في المدارس والجامعات، خصوصاً في مصر ولبنان. إلا أن مصر سبقت سواها " فقد كان لحكومتها اهتمام بترقية التمثيل. فلا عجب أن تصبح موئل هذا الفن. وبرزت فيه، بعد جورج أبيض، جماعة أخرى معروفة مثل عزيز عيد ويوسف وهبي، وزكي طليمات، ونجيب الريحاني... " ٣٨ وقد قدّموا مسرحيات من النوع التراجيدي والكوميدي، بعضها بالفصحى وبعضها بالعامية.. وظهر في ما بعد النوع الفكري التأملي كمسرح الكاتب الكبير توفيق الحكيم. وقد ألّفوا المسرحيات أو ترجموها أو اقتبسوها عن المسرح العالمي. وكانوا يتصرّفون في النصوص أحياناً لتقارب الواقع الإجتماعي والتقاليد السائدة وأذواق الناس. وقد ترجموا مئات المسرحيات إلى اللغة العربية – عن الفرنسية والإنكليزية خصوصا–

إما بنصها الدقيق او ببعض التصرف. وما زال كل ذلك جارياً في مجال التأليف إلى اليوم. أما أشهر المترجمين فكانوا: طانيوس عبده ونجيب الحداد٣٩ ويوسف السباعي ومحمد عفت، وشاعر القطرين خليل مطران الذي كانت له فرقته " المسرح القومي ". هذا ولعل أول عمل مسرحي شعري هو نص الأديب اللبناني خليل اليازجي " المروءة والوفاء " سنة ١٨٧٦.

وقد كتب الشاعر أحمد شوقي نصوصاً مسرحية شعرية ونثرية ، خصوصاً في أوائل القرن العشرين (وكان أولها دولة المماليك سنة ١٨٩٢). وكتب مصطفى كامل (صاحب الحزب الوطني) فتح الأندلس سنة ١٨٩٣، وفرح أنطون: مصر الجديدة سنة ١٩١٣ وصلاح الدين سنة ١٩١٤.

وانطلق المسرح بعد الحرب العالمية الثانية انطلاقة جديدة أخرى تعتمد الدرس والإعداد الفنّي والأدبي والمادي وقد ظهرت في تلك الفترة مواهب ووجوه جديدة أو تعزّز وجودها بعد انطلاقة مبكّرة. ويذكر الأستاذ زكي طليمات بعض هؤلاء فيقول: " المسرحيات العربية التي يكتبها توفيق الحكيم ومحمود تيمور وعلي أحمد باكثير تقف اليوم بجدارة إلى جانب المسرحيات العالمية، حتى إن بعض المسارح العالمية قدّمتها لأصالتها وكشفها عن أبعاد نفسية جديدة " ٤٠.

-٤/ج - ولما دخلت مصر عصر السينما، عرف المسرح منافسة جدّية، لكنها لم تقض عليه (كما لم يقض عليه ظهور التلفزيون ودوره الخطير في العصر الحديث). لكنّ المنافسة تركت عليه أثراً مهماً إيجابياً وسلبياً. فالفنون المشهدية الأخرى قد تأخذ منه بعض الهواة ربما – كما فعل التلفزيون بالسينما في ما بعد – لكن المنافسة تحفّز من أجل التطوير والتحسين وإثبات الوجود بأعمال فنيّة تفرض نفسها.

ونقول استكمالاً إن قصة السينما هذه تحملنا مرة أخرى إلى مرحلة جديدة من التكامل الفنّي الحضاري بين مصر ولبنان. لقد كانت مصر رائدة النهضة السينمائية عندنا. ويضيق المقام بتذكر الفنانين الكبار الذين أنجبتهم عبر تاريخها الفني الطويل حتى اليوم، والذين يعرفهم العالم العربي جميعاً في ميادين التمثيل والإخراج والموسيقى والغناء والإنتاج... بقي أن نلتفت قليلاً إلى ما قدّمه اللبنانيون في هذه النهضة من دور ومشاركة منذ البداية كذلك. فقد ساهمت سيدة مميّزة من جبل لبنان في الإنتاج السينمائي الجيّد ،منذ بداياته ، وهي آسيا داغر (آسيا: في السينما).كما ساهم في ذلك جيل كامل من صناع الأفلام والممثلين الذين يجمعون بين الكوميديا والتراجيديا والتأليف والتمثيل والإخراج والموسيقى.... وقد طوّر الموسيقيون المصريون ألوان الموسيقى والغناء، في القاهرة وبيروت، متأثّرين بروائع الموسيقى الغربية. لكن هؤلاء الكبار عرفوا كيف يقدّمون فناً حضارياً شرقياً عربياً يأخذ من جمالات الفنون العالمية ويبقى راسخاً في أصالته. ونكتفي هنا بذكر سيّد درويش والفنان محمد عبد الوهاب، والأخوين رحباني في لبنان... وقد أنتجت نهضة الموسيقى أصواتاً شادية نذكر منها صوتين عظيمين ما زالت أصداؤهما في كل قلب وأذن هما السيدة أم كلثوم والسيدة فيروز. ولولا ضيق المقام لتوجب أن ننصف آخرين نهضوا كذلك – في هذا اللقاء الرائع بين البلدين – بوسيقاهم وأصواتهم وتمثيلهم وصناعاتهم الفنيّة الراقية التي أدخلت البهجة في قلوب بلاد العرب جميعاً.

وبهذا نختم هذه الإطلالة على أسس النهضة والمظاهر التي تمثّلت فيها، وهذا اللقاء الفريد الذي انطلق في تطويرها وما زال يعمل في خدمة اللغة العربية وآدابها ونهضتها ، ويقدّم مساهمته التي صارت منذ زمن، مسارا عربيا شاملا عينه على صونها، وقلبه على جمع أهلها كي يستكملوا ، معا، مسارهم الحضاري.

الهوامش

×× تبدو مراجعة الخلاصات التاريخية ضرورية لكي تظهر لنا الوقائع والنتائج التي تمخّضت عنها أحوال العرب بعد قرون من الحكم التركي. وهناك مراجع كثيرة مهمة لدراسة هذه الفترة – لمن يشاء- ونشير هنا بشكل خاص الى المراجع المفيدة التالية:

- الجبرتي: " عجائب الآثار "
- زيدان: " تاريخ مصر الحديث " و " تراجم مشاهير الشرق "
- حتي: " تاريخ العرب المطوّل "
- أنيس محي الدين النصولي: " أسباب النهضة "
- عمر طوسون: " البعثات العلمية "
- عبد المنصف محمود: " ابراهيم الفاتح "
- ابراهيم أبو عز الدين: ابراهيم باشا في سوريا ولبنان.

- Georges Antonius: Arab Awakening

Charles Adams: Islam and Modenism

A.Roustom " The Royal Archives of Egypt "

M.J Marcel: L'Egypte depuis la conquête des Arabes ...

١ أنظر المقتطف – السنة الرابعة ص٥٣٦. وفيها تحقيق قيم عن المدارس ويراجع لهذا الفصل كذلك – بالإضافة إلى المراجع الأساسية السابقة :

- الهلال السنة ٩ – و ٢٠ – وتاريخ آداب العربية – زيدان الجزء الرابع و:

- La Syrie d'aujourd'hui - D.Lortet (Paris ١٨٨٤)

- La Syrie - P.Lamens

- Les Puissances Etrangères dans le Levant

R. Mattews and A.Akrawi: " Education in Arab Countries ... "

٢ وقد أسست البعثات الروسية كذلك عدداً من المدارس في لبنان وسوريا وفلسطين و "أنفقت عليها مبالغ طائلة " كما ذكرت الهلال (٢٢٨/٩) وقد ذكرت الهلال والمقتطف بعض الأرقام عن إنفاق مؤسسي المدارس. كما ذكرت المقتطف (السنة السابعة – ٥٣٧) أن عدد المدارس في لبنان وسوريا بلغ عام ١٨٨٣ نحو ١٤٧٣ مدرسة تضم ٦٢٥٦٦ تلميذاً. وكان عدد السكان حوالي المليونين.

٣ وكان اسمها آنذاك " الكلية الإنجيلية " وقد وفد الكثيرون من خريجيها إلى مصر.

٤ أو " الجامعة اليسوعية " كما تسمّى كذلك نسبةً إلى مؤسسيها الآباء اليسوعيين.

٥ لكن عدد طلابها يناهز اليوم التسعين ألفاً وتدرّس سائر الإختصاصات ولها فروع في محافظات لبنان جميعاً.

- وفي بيروت اليوم أكثر من أربعين جامعة،

٦ وقد أسلفنا الكلام على هجرتهم، ويمكن أن يراجع ذلك في موضعه.

٧ بالإضافة إلى المراجع الأساسية السابقة، نعتمد في هذا القسم خصوصاً على:

R.Mattews and M.Akrawi: " Education in Arab Countries ... "

و: عمر طوسون: " البعثات العلمية "

و: زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ مصر الحديث (ج٤) خصوصاً.

٨ أنظر خصوصاً: عمر طوسون: البعثات العلمية (٤١-٤٨) و" Education ... " ص١١٦

وتدل الوثائق المحفوظة أنه أرسل بين ١٨١٣ و١٨٤٩ (سنة وفاته) ٣١١ طالباً مصرياً إلى إيطاليا وأنكلترا والنمسا، و فرنسا. فكلفوا الدولة ٢٧٣٣٦٠ جنيهاً (وهو مبلغ ضخم في حينه) – أنظر: زيدان تاريخ آداب اللغة العربية (٢٩/٤...)

٩ " أسباب النهضة " ص-٧١.

١٠ نفسه ص ٧٢.

١١ نفسه ص ٧٢.

١٢أنظر حتي ٢/٨٧٧.

١٣ لم تكن المدارس الحكومية مجهزة دائماً كما يجب ولم تكن إمداداتها المادية من الكتب والحاجات والأساتذة مؤمنة دائماً، لكنها لعبت دوراً مهماً في نقل التعليم من الكتاتيب إلى المستوى الثانوي الذي هيّأ آلاف الطلاب لدخول الجامعات.

١٤ Education in Arab Countries ... p ١١٦.

١٥ وكان قد بدأ ببناء القاهرة مكان الفسطاط عام ٩٦٩ وقد صارت عاصمة الفاطميين عام ٩٧٣. وسمّيت كذلك "على إسم "قاهر الفلك" المريخ الذي كان في صعود آنذاك ".

أنظر: إبن خلكان – وفيات الأعيان ١/٢٠٩... – والمقريزي: "الخطط ": ج١-٣٥٢-٣٧٧ وحتي ٢/٧٣٤ –: ١١٠ وما بعدها.

١٦ وهو اليوم جامعة مكتملة الإختصاصات مكانه الفسيح في قلب القاهرة.

١٧ نعتمد في هذه الدراسة المراجع الأساسية التالية، بشكل خاص:

١- تاريخ الصحافة العربية: فيكونت دي طرازي.

٢- تاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان (ج٤ خصوصاً).

٣- مجلة الهلال (السنة الثانية والعشرون)

٤- تطوّر الصحافة المصرية: ابراهيم عبده (١٩٤٥)

٥- "P" (Histoire de l'Imprimerie ١٣٠ et suite)

بالإضافة إلى المراجع المهمة التي ذكرت سابقاً.

١٨ أنظر: تطوّر الصحافة المصرية – ابراهيم عبده – ص٧٤ – و"أبو نظارة" – ابراهيم عبده ص١٢

- أنيس المقدسي: الفنون الأدبية ص٤٠ – و" تطور الصحافة المصرية " ص٢٤٠ وما بعدها.

١٩ وقد أسّس المهاجرون اللبنانيون صحفاً ومجلات أخرى حيثما ذهبوا مثل: برجيس باريس لرشيد الدحداح ١٨٥٨ – والجوائب لأحمد فارس الشدياق في الآستانة ١٨٦٠ – والسمير للشاعر إيليا أبي ماضي في نيويورك - ١٩١٧- وكانت تنشر لشعراء وكتاب الرابطة القلمية رفاق جبران خليل جبران – وكوكب أميركا للعربيلي سنة ١٨٩١، وتحسب أول صحيفة عربية في أميركا، وجريدة الهدى لنعوم مكرزل في نيويورك كذلك (وكانت ما تزال تصدر)، ومجلة " العصبة الأندلسية " في البرازيل... وغيرها كثير مما يمكن مراجعته في " تاريخ الصحافة العربية " للطرزي.

- وقد ظهرت في بعض البلاد العربية الأخرى صحف في أواخر القرن التاسع عشر كمرآة الأحوال لرزق الله حسّون – والفرات للكواكبي – والمقتبس لمحمد كرد علي في الشام... وأسّس اللبناني فارس نصر أول مطبعة وجريدة في الأردن هي " جريدة الأردن " سنة ١٩٢٦.

وليس المقصود تجاوز مساهمات العرب الصحافية والثقافية. لكنها تقع خارج مجال دراستنا.

٢٠ نعتمد في مراجعة هذا الفصل، بالإضافة إلى المراجع الأساسية السابقة على ما يلي:

- تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (ج٤) والهلال (السنة ٢٢، والسنة التاسعة).

- و: (M.A. Geiss Histoire de l'Imprimerie en Egypte)

- و: (p ... ٤٦.A Literary History of the Arabs: N: Nicholson)

- و المشرق: " تاريخ الطباعة " (بيروت، مجلّد سلسلة مقالات) – والمشرق ١١/٤٣٠ – والمقتطف ٧/٤٦٢ وما بعدها.

٢١ الهلال ٢٢/٤٣٠ وما بعدها.

٢٢ نفسه.

٢٣ المشرق ١١/٤٣٠- ٤٤٠.

– و: المشرق: تاريخ الطباعة. – و: Histoire de l'Imprimerie (et suite ٢١٠)

حيث يدعون إلى وجوب عناية المطبعة بطبع الكتب المدرسية والإهتمام بنشرها.

٢٤ الهلال ٤٣٢/٩...

٢٥ نفسه ٢٠٩/٢.

٢٦ راجع المشرق ٥٠٢/٣ – والمشرق: تاريخ الطباعة – والمقتطف ٤٦٥/٧... وتاريخ آداب اللغة العربية – زيدان (ص٥٦ وما بعدها) – والأب لويس شيخو ٧٢/١.

٢٧ راجع المشرق ٥٠٢/٣ – والمشرق: تاريخ الطباعة – والمقتطف ٤٦٥/٧... وتاريخ آداب اللغة العربية – زيدان (ص٥٦ وما بعدها) – والأب لويس شيخو–٧٢–١ ٧٢/١.

٢٨ أنظر: المقتطف ٣٨٧/٧ – وأسباب النهضة: للنصولي ص١٢٨ – وكتاب " المطبعة الأميركية " ص٧ وما بعدها...

٢٩ نفسه، وكذلك اسباب النهضة – ص١٢٨.

٣٠ راجع للتفاصيل المشرق: تاريخ الطباعة.

٣١ راجع لهذا الفصل بشكل خاص:

– المسرحية في الأدب العربي ؛محمد يوسف نجم. – محمد مندور: المسرح و: مسرح الحكيم.– الفنون الأدبية وأعلامها: أنيس المقدسي.

– طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر.

٣٢ وهو اليوم متحف باسمه

٣٣ كانت لفظة مرسح تطلق على المسرح أحياناً، خصوصاً في البدايات. – الفنون الأدبية، ص٥٣٤.

٣٤ نجم: المسرحية ص ٢٧–٢٨.

٣٥ نفسه ص ٢٨.

٣٦ نفسه: ٧٨ وما بعدها.

٣٧ أنظر الفنون الأدبية، ص٥٣٥ وما بعدها.

٣٨ نفسه ٥٣٦.

٣٩ كان نجيب حدّاد (١٨٦٧ – ١٨٩٩) من أوائل المسرحيين كذلك، فقد ترجم مجموعة كبرى من الروايات وألّف غيرها وقدّمها خلال عمره القصير في العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر.

٤٠ الفنون الأدبية – ص٥٤٠ – عن مجلة الرائد العربي الكويتية.

المصادر والمراجع:

– أرسلان، الأمير شكيب: النهضة العربية مطبعة دار النشر بمصر (١٩٣٧)

حاضر العالم الإسلامي – القاهرة.

– أمين، أحمد: فيض الخاطر – مكتبة النهضة المصرية.

– بدوي أحمد أحمد: رفاعة الطهطاوي بك – مصر ١٩٥٠.

– تاجر، جاك: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر – دار المعارف بمصر.

– الجبرتي، عبد الرحمان: عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

– حتي، فيليب: تاريخ العرب المطوّل – بيروت ١٩٦٥.

– حسين، طه: مستقبل الثقافة في مصر – مطبعة المعارف بمصر (١٩٤٣).

المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط.ج. ٢٠٠٠.

- خوري، رئيف: الفكر العربي الحديث (أثر الثورة الفرنسية) – دار المكشوف، بيروت ١٩٤٣.
- الرافعي، عبد الرحمان: عصر محمد علي – القاهرة ١٩٥١ / عصر اسماعيل – القاهرة ١٩٣٢.
- الرافعي، عبد الرحمان: محمد فريد، رمز الإخلاص.
- رضا، محمد رشيد: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.
- الريحاني، أمين: الريحانيات – بيروت ١٩٥٦ / القوميات (١٩٥٦).
- الريحاني، أمين: " كيف تصلح الأمة " المقتطف، ٧٢ (١٩٢٨).
- زكي، أحمد: السفر إلى المؤتمر – بولاق ١٨٩٣م. / الدنيا في باريس – القاهرة ١٩٠٠.
- زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية – الهلال ١٩١١.
تراجم مشاهير الشرق – مكتبة الحياة، بيروت.
رحلة جرجي زيدان إلى أوروبا (سنة ١٩١٢).
مختارات (من مقالات زيدان) – مطبعة الهلال، ١٩١٩.
تاريخ التمدن الإسلامي – دار الهلال، طبعة جديدة: ٢٠٠٠
- الشدياق، أحمد فارس: الساق على الساق – مطبعة الفنون، مصر.
كنز الرغائب – مطبعة الجوائب، الطبعة الأولى.
- شيخو، الأب لويس: الآداب العربية في القرن التاسع عشر – بيروت (١٩٢٦)
- طرازي، الفيكونت فيليب دى: تاريخ الصحافة العربية – بيروت ١٩١٣.
- طوسون، عمر: البعثات العلمية – الإسكندرية ١٩٣٤.
- الطهطاوي، رفاعة بدوي رافع: تخليص الإبريز – بولاق ١٢٥٠ه – مصر.
مناهج الألباب – مصر ١٩١٢/المرشد الأمين – مصر١٢٩٢ه
- عبده، الشيخ محمد: الإسلام دين العلم والمدنية – دار الهلال.
- فريد، محمد: (رحلات) – الإسكندرية (١٩٠٥).
- فكري، محمد أمين: إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا – مصر ١٨٩٢.
- كرد علي، محمد: مصادر الثقافة العربية وتأثيرها في الحضارة الحديثة.
- المقدسي، أنيس: الفنون الأدبية وأعلامها – بيروت ١٩٩٠.
الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث – بيروت ١٩٨٢.
- المويلحي، ابراهيم: حول حديث عيسى بن هشام – الرسالة ٤٨٨ (١٩٤٢).
- نجم، محمد يوسف: المسرحية في الأدب العربي الحديث بيروت ط.ج.١٩٩١.
- نصر، أنيس: النبوغ اللبناني في القرن العشرين – حلب ١٩٣٨.
- النصولي، أنيس محي الدين: أسباب النهضة العربية – بيروت ١٩٢٦.
- يارد، نازك: الرحالون العرب وحضارة الغرب – بيروت نوفل ١٩٧٩.
بالاضافة الى ما ذكرناه في الهوامش من اعداد مهمة لبعض المجلات ذات الفائدة: كالمشرق والمقتطف والمقطم و الهلال

المصادر والمراجع في اللغات الأجنبية:

-- Abu – Lughod. I.: Arab Rediscovery of Europe – Princeton ١٩٦٣.
- Adams. Ch.: Islam & Modernism in Egypt - Oxford ١٩٣٣.
- Antonius. G.: The Arab Awakening – New York ١٩٦٥.
- Encyclopédie de l'Islam – ٢٠٠٢
- Geiss. M.: Histoire de l'imprimerie en Egypte
- Hourani. A.: Arabic Thought in the Liberal Age – Oxford ١٩٦٢.
- P. Lamens: Beyrouth ١٩٢١ – La Syrie.
- Mattews R. and Akrawi: Education in Arab Countries – Washington ١٩٤٩.
- Miller W.: The Ottoman Empire - Cambridge ١٩٣٦.
- Nicholson R.A: Literary History of the Arabs – Cambridge ١٩٣٠.
- Sharabi.H: Arab Intellectuals & the West – J.Hopkins ١٩٧٠.
- Toynbee.A.G.: Survey of International Affairs – ١٩٢٥ – v١- – Oxford
- Zeki.Ahmed: Le Passé et l'Avenir de l'Art Musulman – Egypte Contemporaine. IV.pp.٣٢-١.